

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 15 (2011) : 103 - 117
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

الحركة السنوسية وامتدادها عبر الصحراء الكبرى: دراسة تاريخية

صالح بوسليم[1] و ميلود ميسوم[2]
[1] - قسم العلوم الإنسانية المركز الجامعي لغرداية
[2] - قسم العلوم الإنسانية جامعة الشلف
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

لعبت الطرق الصوفية[1] الدور الأساسي في نشر الإسلام في القارة الإفريقية، إلى جانب ارتباطها بالدعوة والجهاد،حتى أنه لا يمكن أن نؤرخ للجهاد والدعوة في القارة الإفريقية دون الحديث عن الصوفية وطرقها والدور الذي أسدته للدعوة الإسلامية. وقد استطاع رجال الطرق الصوفية أن ينشروا كلمة التوحيد، وأن يرفعوا رايات الإسلام والدعوة المحمدية في قلب الغابة الاستوائية. وقد برز دور دعاة الطرق الصوفية عندما خرجت أوربا منذ القرن السادس عشر في حركتها الشعبية التي استهلتها البرتغال من أجل نشر المسيحية وضرب المسلمين في أرزاقهم وثرواتهم، ومن هنا بدأ الصدام وظهر الجهاد في مطلع العصور الحديثة. وبمرور الوقت وجدت نفسها أمام تحدٍ سافر في تلك المجتمعات، وكان لابد من استحداث نوع من التعليم الديني للقضاء على الجهل ونشر قواعد الدين الصحيح بعد تعلم اللغة العربية قراءة وكتابة.

وكان لهذه الطرق الصوفية دوراً مهماً له كبير الأثر في تاريخ وحضارة القارة الإفريقية ونهضتها، حيث صار كل مسلم في هذه القارة يرى ضرورة ارتباطه بإحدى الطرق الصوفية التي أقامت الزوايا للعبادة ولإيواء الوافدين والقيام على شؤونهم، في الوقت نفسه فإن الدور الذي لعبته الطرق الصوفية في المجال الاقتصادي لا يقل بحال من الأحوال عن الدور السياسي في نشر الدعوة الإسلامية، ولعل ماقامت به الطريقة السنوسية خير دليل على ذلك.

وبمناسبة إنعقاد هذا الملتقى الدولي الأول الذي ينظّمه المركز الجامعي بغرداية ممثّلا في معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية حول: "الإنسان والصحراء الكبرى: قراءات تاريخية واجتماعية"، سنحاول تسليط بعض الضوء على الحركة السنوسية وامتدادها عبر الصحراء، وتتبّع أهم النشاطات التي قامت بها خلال الفترة الممتدة من تاريخ تأسيسها على يد الشيخ محمد بن علي السنوسي (1202 هـ – 1276هـ/1787م– 1859م)، وإلى غاية الثلث الأول من القرن العشرين، وهذا بالرجوع إلى مصادر ومراجع عنيت بموضوع الحركة السنوسية من الناحية التاريخية والدينية.

– تأسيس الطريقة والزوايا السنوسية بالصحراء الكبرى:

تُنسب هذه الطريقة إلى السيد محمد بن علي السنوسي بن العربي الأطرش بن محمد بن عبد القادر بن أحمد بن شهيدة، ويرجع في نسبه إلى الفرع الإدريسي من خلال إدريس الأصغر باني فاس ابن الإمام إدريس الأكبر أول ملوك الأدارسة[2].

ولد صبيحة يوم الاثنين 12ربيع الأول 1202 هـ الموافق 21 ديسمبر1787م، وكانت ولادته بضاحية وادي مَيْثاً بمنداس الواقعة على ضفة وادي الشلف بمنطقة الواسطة التابعة لبلدة مستغانم في الجزائر[3]. وتشير المصادر أنه قد نشأ يتيماً، فقد توفي والده وهو صغير؛ فنشأ في حجر عمته، وكانت من الصالحات، فأشغلته بعلم العقائد والتوحيد صغراً بعد أن حفظ القرآن الكريم[4].

تلقى تعليمه الأول من شيوخ مستغانم، وغيرها من البلاد المجاورة لها، ثم انتقل إلى بلدة مازونه، حيث مكث بها سنة واحدة وتتلمذ على مجموعة من المشايخ، ويأتي في مقدمتهم الشيخ محمد بن علي بن أبي طالب، والشيخ أبو رأس الناصري المعسكري، والشيخ أبو المهل أبو زوينه[5]. بعد ذلك رحل إلى مدينة تلمسان، وأقام بها مايقارب من السنة، وتتلمذ على كبار شيوخها[6]. وأتمّ تحصيله بمدينة فاس، حيث مكث فيها سبع سنوات تقريباً، ولعل من أهم المشايخ الذين تتلمذ على أيديهم، شيخ الطريقة الشاذلية مولاي العربي بن أحمد الدرقاوي. وكانت رحلة محمد بن علي السنوسي إلى حاضرة فاس فرصة ثمينة بحق لمعرفة الطرق الصوفية، إلى جانب التفقه في علوم الدين، وقد أصبح بعد تطلّعه وتفرسه مدرّساً بالجامع الكبير بمدينة فاس[7].

وقد برز اهتمامه بالحركات الإصلاحية، والوقوف في وجه الحكام ضد انحرافهم، والوقوف معهم لتحقيق الإصلاح، وفي ذلك يقول الباحث محمد فؤاد شكري: "ولما كان حبه لمنفعة المسلمين، ورغبته في أن يرى العدل باسطاً جناحيه على أهل السلطنة، وعلى شعوب الإسلام طراً، هي كل مايريد في حياته، فقد أكثر من الموعظة الحسنة في أثناء دروسه، وجرب مع الأهلين وأصحاب الشأن في فاس طرق الإرشاد بالحسنى تارة، وبالشدة أخرى، ولكن دعوته إلى العدل والخير وجمع كل المسلمين، وتطهير النفوس، والابتعاد عن المنكر لم تثمر ثمرتها، بل إن كل ماحدث هو تنبه حكومة السلطان مولاي سليمان إلى هذه الدعوة وتلمس الخطر من جانبها، خشية أن تنقلب الدعوة الدينية إلى أخرى سياسية، فقد تعصف بالسلطنة.. وعلى ذلك فقد شددت الحكومة في مراقبة السيد، فوجد ألا فائدة ترجى من بقائه في فاس وقرر الارتحال ".

وفي سنة 1235هـ غادر الجزائر براً حيث قام بزيارة تونس وطرابلس حتى وصل إلى الحجاز[8]،وذلك بعد أن ثارت فتناً كثيرة في مدينة فاس.

والجدير بالذكر أن السيد محمد بن علي السنوسي بعدما ترك كل شيء في بلده الأصلي في الواسطة بمستغانم (الجزائر) أسّس أول زاوية له في تاريخ الطريقة في جبل أبي قبيس بمكة المكرمة سنة **1255**هـ/**1837**م[9]. وعيّن أثناء رحلته من الحجاز إلى المغرب الشيخ عبدالله التواتي خليفةً له على تلك الزاوية للقيام بشؤون الأتباع[10]، ثم جاء ليستقر بالجبل الأخضر بليبيا، لذا أنشأ زاوية بمنطقة الجغابيب سنة **1271**هـ في الجنوب الشرقي من بنغازي، وسميت زاوية الجغبوب[11]، وكانت هذه المنطقة مكان نزاع وصراع بين القبائل، وبمجرّد إنشاء الزاوية هناك تم تآلف تلك القبائل، ولم يعد هناك بينهم أي نوع من العداوة، وأصبحت مكان إصلاح وسلام[12]، وتوفي سنة **1276**هـ/**1859**م. و قد عرف عن سلوكه رحمه الله التقوى، لذا عمد أثناء رحلاته إلى زيارة الزوايا والاجتماع بالإخوان والإطلاع على مختلف الطرق.

وقدكانت زاوية الجغبوب مركزاً أحسن السنوسي اختياره لتحقيق أغراضه؛ فهي توجد وسط قبائل كان النزاع بينها مستمرا، ومن ثم أمكن للسنوسي أن يبسط نفوذه على المتنازعين، وأن يصلح ذات بينهم، وبالفعل انقطعت بعد إقامته في الجغبوب، واتخاذها مقراً لدعوته، تلك الإغارات التي كانت مستمرة بين قبائل الشرق والغرب، كما عني السنوسي بتزويد زاويته بمكتبة كبيرة حوت الكثير من المصادر والمخطوطات النادرة التي ضاع أكثرها عقب الاحتلال الإيطالي لليبيا[13].

وأول زاوية يؤسسها ابن السنوسي خارج الحجاز هي الزاوية البيضاء، والتي شرع أتباع الطريقة السنوسية في تأسيسها بتوجيه منه قبل مجيئه. ولها مقام كبير عند السنوسية، ويطلق عليها أم الزوايا، وقد بنيت خارج البلدة، وعلى بعد حوالي ثلاثة كيلومترات منها ويلاحظ الباحث أن الشيخ السنوسي اختار لها موقعاً استراتيجياً جيداً يتميز بسهولة الدفاع عنه وصعوبة الوصول إليه. كما يلاحظ أيضاً أنه أحسن بناءها. ولقد تميزت كل الزوايا التي أنشئت ببرقة بالموقع الاستراتيجي، كما أنها تتتابع بانتظام ممّا يدل على أن الشيخ السنوسي كان يرمي إلى جعلها كالقلاع لتقوم بصد المعتدين في الحروب لأنه كان يتوقع هجوم الأعداء عليها[14].

ومن الزاوية البيضاء شرع الشيخ السنوسي يُعلم الناس ويُذكّرهم بالله ويرشدهم إلى طريق النجاة في الدنيا والآخرة، وبدأت القبائل تتوافد إليه وتطلب زيارته لها تبركاً به وتطلب إقامة زوايا لها أسوة بالزاوية البيضاء، فكان رحمه الله يتوجه بنفسه إلى القبيلة أو المكان المطلوب إقامة الزاوية فيه وأحياناً ينتدب بعض المريدون لذلك، وهكذا بدأت القبائل تتسابق والزوايا تنتشر[15].
وقد عرفت الحركة السنوسية زعماء أربعة، وهم على التوالي:

الشيخ محمد بن علي السنوسي **1202**هـ – **1276**هـ / **1787**م – **1859**م: وهو المؤسس للدعوة السنوسية، وتنسب السنوسية لجده الرابع، والشيخ الإمام المهدي محمد بن علي

السنوسي **1261** هـ – **1319**هـ /**1844**م – **1902**م).وقد نجح السنوسيون في عهده في نشر دعوتهم في كل من واداي والباجيرمى والبوركوه وتبو ونهر بينوي، إلى أن بلغوا النيجر الأدنى. وفي عهد المهدي عمد السنوسيون إلى إرسال البعثات الاستكشافية، الواحدة تلو الأخرى، لدراسة أحوال الطرق المختلفة في جوف الصحراء والواقعة بين الكفرة وفزان من جهة، وبين الكفرة وأقاليم غرب السودان من جهة أخرى، ودراسة الطرق الواقعة بين الكفرة ومصر، وآخر هذه البعثات هي تلك التي كانت برئاسة السيد مصطفى السمالوسي، وقد اكتشفت هذه البعثة حطية العوينات والحطايا التي تكتنفها[16].

وفي بداية القرن العشرين توفي الإمام المهدي السنوسي، وخلفه ابن أخيه الشيخ أحمد الشريف السنوسي ابن عم المهدي وصياً على السيد إدريس السنوسي، وقد خرج السيد أحمد الشريف عن نهج أسلافه، إذ أراد أن يجمع بين يديه السلطتين الدينية والسياسية، ووضّح ذلك حينما استولى الإيطاليون على برقة وطرابلس من الأتراك العثمانيين، إذ حاول السيد أحمد أن يضيف إلى نفوذه الديني ماتركه العثمانيون من فراغ سياسي وعسكري، وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى قام تحت تحريض البعثات العسكرية التركية والألمانية بمهاجمة الإنجليز في مصر،ولكن محاولاته لم يقدر لها النجاح، واضطر إلى اللجوء إلى الأستانة[17]. وخلفه السيد الأمير محمد إدريس السنوسي[18]، الذي وقّع اتفاقاً مع الحكومة الإيطالية في عام **1917**م، أقرّت فيه بحقه في إدارة شؤون واحات جالو، أوجلة، أجدابيا، والكفرة، وإن كان الإيطاليون قد نكثوا باتفاقهم. وفي عهده انتشرت الزوايا السنوسية في الصحراء مما دفع كثيرا من الرحالة إلى القيام برحلات استهدفوا من ورائها كشف الصحراء الكبرى.

02– جهود الزوايا والطرق السنوسية الديني والاجتماعي بالصحراء الكبرى:

إن المتتبّع للحركات العلمية والنشاطات الثقافية وتاريخ المعاهد والمراكز العلمية في البلاد العربية والإسلامية يجد أن الزوايا من ضمن المراكز التي قامت بإسهامات كبيرة في سبيل نشر العلم بين أبناء المسلمين، شأنها في ذلك شأن المساجد مع الفارق في بعض المهام والاختصاصات.وهذا ما يؤكد إلى أن فكرة الزوايا كانت موجودة في العالم الإسلامي قبل ظهور الحركة السنوسية، حيث كانت الزاوية هي المكان الذي يتجمع فيها الصوفية، ويجلسون فيها يتلون أورادهم وصلواتهم الخاصة بهم، ولم تكن وظيفة الزاوية إلا كمركز للذكر فقط، ولم تتطور لتؤدي دوراً آخر إلا في عهد الإمام السنوسي .

وفي الغالب عند إنشاء الزاويا السنوسية نجدها تضم إلى جانبها أيضا مسجداً وبيوتاً لإقامة الطلبة، ولكنها سرعان ما تكبر فيما بعد وتتَّسع حتى تصبح كالمدينة.

وكان يقيم بالزاوية السنوسية الرئيسة خلال تلك الفترة مشايخ وعلماء وطلاب العلم مع

أسرهم وأولادهم، ويضاف لتعداد القاطنين بها أيضاً الضِّعف والضِّعفين من الطلبة والزوار، ويزور الجغبوب العديد من الزوار القادمين من أماكن بعيدة، كما يوجد المئات من أبناء القبائل بصورة دائمة يدرسون الصرف والنحو والفقه، بالإضافة إلى علوم الذات والصفات والفقه والحديث والدلالات، والعلوم الطبيعية مثل الفلك والرياضيات والعلوم وكيفية صناعة أدوات مثل الإسطرلاب والكرات وغيره من العلوم العربية. وذلك ليكتسبون معرفة وعلماً حسب قابليتهم وذكائهم، وبعد ذلك يعود بعضهم إلى مسقط رأسه كعالم[19].

والطلبة الفقراء تؤمن لهم الزاوية عيشاً وسكناً مجانياً، كما يتولى بعض الفلاحين زراعة بساتين حول المدينة، وتستفيد الزاوية من ريع تلك الأحباس. وهكذا أصبحت واحة الجغبوب بفضل هذه الزاوية عاصمة للسنوسية في بادئ الأمر، ومن ثم معهداً إسلاميا على غرار الأزهر بمصر والقرويين بفاس والزيتونة بتونس، وكادت الجغبوب أن تضاهي الصروح العلمية فيما بعد إذا ما كتب لها ذلك.

وفيما يتعلق بمحصول الأراضي الموقوفة، أو المخصصة للزاوية فكان يُنْفَق على احتياجات فقرائها وضيوفها غذاءً وكساءً وتعليماً وزواجاً، وما بقي يذهب إلى المركز الرئيس للطريقة[20]، وكان يُصرَف هذا العائد على شراء السلاح والخيول وشراء الرقيق من الزنوج المختطفين من قِبَل تجار الرقيق وإعادتهم إلى قبائلهم.

لقد حولت الزوايا التي تناثرت في الصحراء الأرض القاحلة إلى جنات مثمرة، وكان السنوسي قدوةً لطائفته في الانخراط بالعمل اليدوي في الزراعة أو في الحِرَف اليدوية.

وجدير بالذكر أن الحركة السنوسية قد امتازت بوضوح مناهجها في الدعوة والإصلاح، حيث دعت إلى إحياء الدين الإسلامي ومحاربة الجمود ونبذ البدع، وسرعان ما انتشرت عبر الصحراء الكبرى حيث نافست القادرية والتيجانية نظراً لإخلاص دُعَاتِها وبساطة تعاليمها[21].

ويقيم بالزاوية شيخ الزاوية، ومن صفاته أن يكون عالماً وعاملاً أيضاً. ثم نائبه ومجموعة من المتصوفين وطلبة العلم. حيث يدرّس أبناء أهالي المنطقة و المناطق المجاورة والقصية أهم العلوم الدينية، ويأتي في مقدمتها القرآن الكريم، وبعض مبادئ الفقه الإسلامي وباقي العلوم الشرعية كما سبق الذكر[22].

وكان لكل زاوية رمزاً وعلامة خاصة تضعها على ممتلكاتها، من غنم ومواشٍ وغيرها، فإذا فُقدت، أوضاع أي منها، فإن أول رجل يعثر عليها سيرجعها إلى الزاوية بكل سرور وممنونية، ويضاف إلى ذلك أنهم لا يؤيدون البطالة والاتكال،كما لا يشجعون التصوف دون عمل واكتساب رزق، وشغلهم الأول تعلم العلم من جهة ومن جهة أخرى القيام بالعمل مثل الزراعة أو التجارة أو غيرهما[23].

وللإشارة فإن الزوايا السنوسية تختلف عن غيرها من الزوايا الأخرى من حيث الشكل والمضمون أي من حيث مواقعها وبنائها، ومن حيث تنظيمها ورسالتها، فهي تُعد ركيزة نظام الحركة السنوسية، وهي التطبيق العملي لأفكار الشيخ السنوسي المؤسس التي دعا إليها[24]. واستطاع الشيخ السنوسي أن يربط بين جميع زوايا الحركة برباط متين من المراسلات والمخاطبات ولجان المراقبة، وفق نظام دقيق تلتقى أسبابه عند الزاوية الكبرى المركزية، وكانت تلك الزوايا قد انتشرت في كل من تونس والجزائر وبرقة ومصر والحجاز واليمن، والسودان الغربي (تشاد)، وكانت تقارير هذه البلاد ترد أولاً إلى بنغازي ثم ترسل إلى الجغبوب بواسطة الهجن وبسرعة عظيمة[25].

وفي الغالب نجد أن الزوايا السنوسية تنتشر في الدواخل أكثر من انتشارها في السواحل، وذلك راجع إلى حرص الشيخ السنوسي عن الابتعاد عن نفوذ السلطة الحكومية، ولذلك فضّل أن يتوغل بزواياه في الصحراء، تفادياً للصدام بها مع سلطات الحكم العثماني في ليبيا .

وتُعد الطريقة السنوسية فريدة بحق، لذا تميّزت بدعوتها للعودة إلى المبادئ السمحة للقرآن والحديث، وتعرف أيضا بتشدّدها في مقاومة المنكرات والانحراف عن الدين، فكانت – مثلا– تمنع الرقص والموسيقى والغناء وتحرم المخدرات، وغير ذلك من أسباب اللهو والفساد، وبهذا الاعتبار كانت قريبة من الحركة الإصلاحية الوهابية المعاصرة لها[26]. وليس هناك من يجد في الطريقة السنوسية فرقا عن الطرق الصوفية الأخرى، وهي عبارة عن مجموعة من الأذكار والأوراد، ولكن هنا شيخ الطريقة بعد أن يُسلّم النيابة للمريد الجديد ويلقّنه الأذكار والأوراد يأخذ عنه فيه عهداً وميثاقاً بإتباع الشريعة الغراء والسنة المحمدية، ويتمسك بأحكام الدين في كل حركاته وسكناته وجميع أعماله.

وفي الحقيقة إن أي مسلم لا يحتاج أن يقسم، أو يعهد لأي شخص بأن تكون كل تصرفاته وسلوكه ضمن حدود الشريعة الإسلامية؛ حيث أن ذاك فرض ومن واجبات الإسلام.

وأنّ ما شوّق الناس هناك بالانتساب إلى هذه الطريقة؛ إنما هو التلقين الذين يقوم به الشيخ، ثم أخذ العهد ومنح النيابة لكل مريد أو منتسب ولكن هدف الشيخ من نشر الطريقة هو إنقاذ قبائل الصحراء هناك من الضلالة والجهل، وتوجيههم إلى ما ينفع دنياهم وآخرتهم من طرق الاستقامة والتمدن وتبيان السبل التي تتبعها الدول الأوروبية سواء في الجزيرة العربية، أو في إفريقيا لاصطياد الغافل والبسيط من عامة الناس حتى تغويهم وتحرِّف عقيدتهم بما تعرضه عليهم من مظاهر المدينة الزائفة[27]. كما قامت الحركة السنوسية بمحاربة عقائد الصوفية المنحرفة والفاسدة، ودعت إلى العقائد الصحيحة، لتجتمع القبائل والشعوب الإسلامية عليها، كما حرصت على الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله، ودعت غيرها إلى التمسك بذلك.

ولقد قامت الزوايا السنوسية بدور اجتماعي مهم، ألا وهو ماضمنته القبائل من أمن وطمأنينة

ومصالحة بين القبائل، وتشجيعها على الاستقرار. يُضاف إلى ذلك أنها شجعت النشاط التجاري والزراعي، وأعطت حيويةً ونشاطاً لِطَرْقِ تجارة القوافل الصحراوية، التي كانت تجوب أعماق الصحراء محمّلة بالمواد والسلع، كما كانت تقوم في الوقت ذاته بتقديم مساعدات وتسهيلات لإراحة المسافرين التجار، ممّا شجّع على التبادل التجاري بين منتجات الزاوية من جهة، وبين ماتحمله القوافل من سلع لاتتوفر في أرض الزاوية من جهة ثانية.

لقدكان الشيخ محمد بن على السنوسي نموذجاً حياً من المعلمين الكبار، وكان مثالا للزهد والورع والتقوى، وكان يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة متمسكا بحدود السنة وحدود الشرع، كما قال عنه الدجاني: "أكسب صوفيته طابع السنة، ولجمها بحدود الشرع، واكسب فقهه طابع الروحية المتألقة"[28].

3- دور السنوسية في التصدي للتوغل الاستعماري الفرنسي في الصحراء:

ارتبط نفوذ الطريقة السنوسية بمنطقة الصحراء الكبرى أكثر من مناطق الشمال الإفريقي، وتوجد لها زاوية شهيرة في نواحي منطقة مستغانم، والتي يعود تأسيسها إلى سنة 1859م، من طرف الشيخ "طكوك الشارف"، وكانت دوما تحت مراقبة الغزاة الفرنسيين، إلى أن تمت مداهمتها واعتقال شيخها، وذلك في سنة 1876م[29].

وأخذت الزوايا السنوسية في الانتشار على مدى ثمانين عاما، وبات لها أتباع في كل قطر إسلامي، ففي منطقة الحجاز وصل عدد زواياها إلى إثنا عشر زاوية، وفي ليبيا والسودان وما جاورهما، بلغ عدد زواياها في حدود مائة وثلاثين زاوية[30].

وممّا تجدر الإشارة إليه أن الشيخ السنوسي كان قد عاصر أولى الدول التي سقطت في قبضة الاحتلال الغربي عندما احتلت فرنسا الجزائر عام 1830م، فأيقن أن محاربة الاستعمار ليست بالثورة المتعجلة؛ فالحرب كانت تعني لديه محاربة الجمود والمحافظة والخرافة والمظالم التي كان يمثلها الأتراك، فلا بد إذن من تجديد الفكر، و المرابطة والاستعداد، والحرص على شمولية الفهم الصحيح للدين. كما رفضت الحركة السنوسية التصوف السلبي الذي عرف انتشارا واسعاً في مناطق عدّة من الصحراء الكبرى، حتى إن بعض شيوخ التصوف في المغرب العربي أشاعوا تبرير احتلال فرنسا له، وقالوا بـ "أننا إذا كنا قد أصبحنا فرنسيين فقد أراد الله ذلك، وهو على كل شيء قدير، فإذا أراد الله أن يكسح الفرنسيين من هذه البلاد فعل، وكان ذلك عليه أمراً يسيراً، ولكنه يُمدّهم بالقوة، وهي مظهر من قدرته الإلهية، فلنحمد الله ولنخضع لإرادته"[31]!. وبفضل جهاد الحركة السنوسية خمد التصوف السلبي،وظلّت الحركة الفكرية الجهادية مستمرّةً حتى النصف الثاني من القرن العشرين، وإلى غاية تخلّص الأقطار المغاربية من العدوان الفرنسي الغاشم .

كما لعبت الزاوية السنوسية أيضا دوراً هاماً إبان الكفاح الجزائري ضد توغل الاستعمار الفرنسي بجنوب الجزائر، وخاصة عندما فكّرت فرنسا في الاستيلاء على الأقاليم الصحراوية الجزائرية، لذا فقد عملت الزاوية السنوسية على توحيد صفوف السكان بمنطقة تيديكلت تحت لوائها[32]، وهنا بدأت فرنسا تشعر بمدى الخطر الذي يُهدد مصالحها التوسعية والتبشيرية بالصحراء، وقد أشار إلى ذلك الضابط "ديبورتر" في تقريره حيث يقول: "إن السنوسية قد أحرزت في هذه المناطق يقصد (توات) خلال السنوات الأخيرة على تقدّم سريع، حتى أن رئيس مقاطعة عين صالح قد أصبح واحداً منهم وهو أكثرهم تشدداً.."، ويختم قوله عن نشاط السنوسية بقوله: "إذا فالسنوسيون هم أعداؤنا ولا يمكن أن نستخف بهم ولكن الأحسن أن نراقبهم عن كثب في كل نشاطاتهم وتحركاتهم في الجزائر"[33].

وممّا يؤكد دعم السنوسية للجهاد الشعبي ما عثر عليه الباحث أحمد صادق الدجاني في خطاب أرسله أحد تلاميذ الشيخ محمد بن علي السنوسي من الجزائر إلى مدير غدامس[34] التركي، وأرشدنا الخطاب إلى أن دعوة السنوسي بلغت الجزائر، وأن عدداً من أتباعه كانوا يقاتلون الفرنسيين فيها، ومنهم مرسل الخطاب وتاريخ الخطاب سنة **1268**هـ.وقد كان الشيخ السنوسي في الحجاز في ذلك التاريخ. ومن بين ماجاء فيه: ((...وأما أنا عبد الله حين قدمت بلاد وارقلة (ورقلة) ففتح الله علينا بها وصارت محمدية بعد ما كانت في يد الرومي دمره الله وخليفة الرومي فيها، سبحان من حكم الضعيف في القوي وصار القوي من عبده مخذولاً مذموماً، لكن من بركة الشريف شيخنا سيدي محمد بن علي السنوسي ﷺ ونفعنا وإياكم به آمين. وصاروا عربان وارقلة (ورقلة) وقصورها وقبائل الشعامبة (الشعانبة) وقصور تغورت (تقرت) وعربانها والأرباع والخرزلية والحجاج وكثير من عربان الظهيرة وقصور بني مصاب (بني مزاب) كلهم تحت طاعة الله ورسوله وطاعتنا والمجاهدين كل يوم في الزيادة...وبعث لنا الرومي دمره الله في هذه الساعة ثلاثة أمحل... تلاقينا معهم وصرنا مثل الشامة البيضاء في ثور اسود فنصرنا الله نصراً عزيزاً واعلننا على أعدائه، ووقع القتال بيننا بالبارود والسيوف حتى كسرناهم كسرة عظيمة وقتلنا منهم نحو ثلاثة ماية وستة وثمانون رجلاً وقلعنا من الخيل كثير والبنادق بلا عدد والخزنة والإبل والأخبية والحمد لله على ذلك...))[35].

ولعلّ هذا ما يؤكد للباحث اهتمام الشيخ محمد بن علي السنوسي بالجهاد في الجزائر ضد الاحتلال الفرنسي، وقد حاول أن يشارك بنفسه؛ إلا أن الظروف حالت دون ذلك. و قد عمل على إرسال تلاميذه، وتزويدهم بالأسلحة والمال، وتحريض أتباعه في الجزائر على القتال، واستمر أتباع السنوسية في دعم حركة الجهاد حتى تمّ دحر الاحتلال الفرنسي من الجزائر، وتحصلت الجزائر على استقلالها عام **1962**م.

وبعد أن امتدت المقاومة الشعبية إلى إقليم توات (جنوب غرب الجزائر)، برز النشاط السياسي للزوايا الدينية هناك، وذلك بفضل تأييد ومساندة أتباع زاوية أولاد سيدي الشيخ، فقد التجأ كل من بوشوشة، وسي قدور بن حمزة[36]، و بوعمامة إلى الإقليم أثناء كفاحهم ضد فرنسا، حيث وصل الأول في صيف عام **1869**م، ومن هناك تمكّن من متابعة مقاومته المسلحة بفضل تأييد ومساندة أتباع زاوية أولاد سيدي الشيخ المقيمة بمقاطعة زوا دلدول، وعندما وقع أسيراً في قبضة فرنسا عام **1873**م تزعم المقاومة سي قدور بن حمزة الذي كان قد وصل الإقليم قبل هذا التاريخ. وفي عام **1882**م التجأ للإقليم محمد بن العربي بن حرمة المشهور (ببوعمامة)[37]، واجتمعت حوله كافة المقاطعات التواتية تسانده وتؤيده، ممّا أزعج فرنسا التي بدأت تفكر جديا في احتلال الإقليم عام **1899**م[38]. ولما كان الإقليم لم يخضع لفرنسا طيلة القرن التاسع عشر الميلادي، فإن الزوايا السنوسية هناك قد استطاعت تعبئة شعور الأهالي، وتكتيلهم أمام تقدّم فرنسا نحو الجنوب عام **1899**م.

وفي عام **1897**م أصدر الأمير محمد المهدي السنوسي قراراً بتعيين الشيخ عمر المختار شيخاً لزاوية القصور[39] بالجبل الأخضر قرب المرج، وقام عمر المختار بأعباء المهمة خير قيام، فعلمّ الناس أمور دينهم، وساهم في فض النزعات بين القبائل وعمل على جمع كلمتهم وسعى في مصالحهم، وتزعم الشيخ عمر المختار بعد ذلك حركة الجهاد والمقاومة، ولم تحل السنوات السبعون من عمره بينه وبين الجهاد ضد الإيطاليين المستعمرين لليبيا، حيث بقي عشر سنوات يقاتل قوى الاستعمار أكبر منه بعشرات المرات، ومجهزة بأضخم الأسلحة في ذلك العصر، إلى أن تمكن منه الاستعمار الإيطالي الغاشم، ووقع بعد معركة فاصلة أسيراً في **11** سبتمبر**1931**م، ونفَّذ فيه حكم الإعدام رحمة الله عليه، وذلك في يوم الأربعاء **16** من سبتمبر عام **1931**م[40].

الخاتمة:

وممّا تقدّم ذكره يمكننا القول أن الدعوة السنوسية كانت تستهدف العودة بالإسلام إلى أصوله الأولى، وكانت ترتكز على دعامات ثلاث هي: الزاوية والإخوان والوكيل. وعلى أية حال فقد نجحت بزواياها ونظامها الإخواني في إيجاد إدارة محلية ساعدت على حفظ الأمن وتوطيد العلاقات بين القبائل وتأمين تجارة القوافل.

وفي حقيقة الأمر فإن السنوسية تُعد حركة دعوة إسلامية إصلاحية تجديدية، وقد اتخذ الشيخ السنوسي الزاوية مرتكزاً أساسا لتحقيق هدفه الإصلاحي وتبليغ الدعوة الإسلامية ونشرها في الأقاليم الوثنية الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى، ورغم قلّة الإمكانيات المادية، وصعوبة الحياة، ومخاطر التنقل في صحراء إفريقيا وأدغالها، فإن أعداداً هائلة من الوثنيين الأفارقة اعتنقوا الإسلام عن طريق الزوايا السنوسية التي كانت منارات للعلم والهداية، بدّدت ظلمات الجهل

والضلالة، وتخرج فيها العلماء، وحفظة القرآن، وقادة الجهاد..

وقد لا نكون مغالين إذا قلنا بأن كل هذه المحاولات الإصلاحية التي نادت إليها الحركة السنوسية، كانت تستهدف أساسا القضاء على البدع، منادية في الوقت ذاته بالعودة إلى الإسلام الأول، ومحاربة التخاذل والاستسلام الذي دبّ في نفوس المعاصرين، وذلك بالدعوة إلى العمل الجاد المخلص، كما نادت برفع مستوى المعرفة لدى الشعوب الإسلامية حتى تساير التطور الحضاري في الغرب.

هذه فقط جملة من النتائج المتواضعة التي تمكنا من التقاطها أثناء رحلتنا القصيرة مع البحث، ولنا أمل أن نوسع النظر فيها، وفي غيرها من القضايا فيما بعد ما وسع الجهد والطاقة لذلك. وبالله التوفيق.

الهوامش:

[1] الطرق الصوفية: الطريق في العربية معناه السبيل، وكانت الطريقة عبارة عن منهج أخلاقي يحدد عمليا ضروب السلوك الفردي، ثم أصبحت عبارة عن جملة مراسيم للتدبير الروحي المعمولة به من أجل المعاشرة في الجماعات الإخوانية، وبذلك تتمايز بينها بحسب غاياتها ومقاصدها، وقد تكون هناك الطريقة الواحدة، وإنما تختلف باختلاف الأمصار والعصور. وبالطريقة يتحقق للشيخ أن يصل بالمريدين إلى مطلوبات التصوف، وهي في نهاية المطاف التحقق بالحق سبحانه وتعالى. ينظر: عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1424هـ/ 2003م، ص780. وأنظر أيضا: يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين 19/20م، ط2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ، الجزائر 1998م ، ج1، ص 340-341.

[2] أحمد صدقي الدجاني، الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، بيروت 1988م، ص34 وما بعدها.

[3] ينظر: عبد القادر بن علي، الفوائد الجَلِيّةُ في تاريخ العائلة السنوسية،، مطبعة دار الجزائر العربية، دمشق، عام 1386هـ/1966م، القسم الأول،ص08.

[4] الدجاني أحمد صدقي، المرجع السابق، ص 37.

[5] عبدالقادر بن علي، المصدر نفسه،ص11.

[6] المصدر نفسه،ص11.

[7] محمد فؤاد شكري، السنوسية دين ودولة، دار الفكر، بيروت 1948م، ص14.

[8] عبد الرحمان تشايجي، الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، ترجمة علي إعزازي، مراجعة محمد الأسطى، تقديم محمد الطاهر الجراري، ط2، مركز الجهاد اللبيين للدراسات التاريخية، طرابلس 1993م، ص ص 60-61.

[9] الدجاني أحمد صدقي، المرجع السابق، ص 282، وما يليها.

[10] محمد عثمان الحشائشي التونسي، رحلة الحشائشي إلى ليبيا، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب،، تحقيق علي مصطفى المصراتي، دار لبنان، الطبعة الأولى 1965م، ص150. وقد احتوت رحلة الحشائشي على كثير من المعلومات عن السنوسية وأثرها الديني والعلمي والسياسي، حتى أصبحت تعد من أخصب المصادر في ذلك الميدان، وإن كان من الأسف أن التفصيلات الكثيرة التي أتى بها الحشائشي عن رحلاته في الصحاري لم تصل إلينا كاملة، فمن الثابت أنه وضع كتاباً بعنوان الرحلة الصحراوية، ولكن هذا الكتاب فقد ولم يصل إلينا وكل معرفتنا بهذا الكتاب تقتصر على بعض الإشارات التي أوردها عنه في ثنايا كتابه المختصر جلاء الكرب.

[11] صادق مؤيد العظم، رحلة في الصحراء الكبرى بأفريقيا،ترجمه عن العثمانية د.عبد الكريم أبوشويرب وراجعه د.صلاح الدين حسن السوري، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس 1998م، ص111.

[12] المرجع نفسه.

[13] الدجاني أحمد صدقي، المرجع السابق، ص 116.

[14] المرجع نفسه، ص**83**.

[15] عبد القادر بن علي، الفوائد الجليلة في تاريخ العائلة السنوسية، مصدر سابق، ص**58**.

[16] الدجاني أحمد صدقي، المرجع السابق، ص **221**.

[17] ينظر: محمد علي الصلابي، صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الأفريقي: الحركة السنوسية في ليبيا وسيرة الزعيمين محمد المهدي، وأحمد الشريف، الشبكة الليبية،عدد**07**، د.ت، ص **110** وما بعدها. وكانت وفاته بتاريخ يوم الجمعة **13** ذي القعدة سنة **1351**هـ الموافق العاشر من شهر مارس سنة **1933**م في الزاوية السنوسية في المدينة المنورة.

[18] ولد يوم الجمعة **12** مارس **1890**م بزاوية الجغبوب، وتوفى بمدينة القاهرة عام **1983**م. للاستزادة ينظر: يحيى جلال، المغرب الكبير، الدار القومية للطباعة والنشر، الإسكندرية، **1966**م، مج**04**، ص**35**.

[19] الدجاني أحمد صدقي، المرجع السابق، ص**113**.

[20] محمد عمارة، تيارات اليقظة الإسلامية الحديثة، كتاب الهلال، القاهرة، **1982**م، ص**35**

[21] إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر **1983**م، ص**224**. ينظر أيضا: عبد الرحمان تشايجي، مرجع سابق، ص**61**.

[22] ينظر: صادق مؤيد العظم، المرجع السابق، ص**114**.

[23] صادق مؤيد العظم، المرجع نفسه، ص**115**.

[24] ينظر: الهواري يوسي،" الشيخ محمد بن علي السنوسي وكتابه إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن" في المجلة الجزائرية للمخطوطات، مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران، العدد الثاني والثالث، منشورات دار الأديب للنشر والتوزيع، وهران – الجزائر**2004**م، ص ص**57**–**58**.

[25] محمد فؤاد شكري، السنوسية دين ودولة، مرجع سابق، ص**50**.

[26] إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص**224**.

[27] صادق مؤيد العظم، المرجع السابق، ص**121**.

[28] الدجاني أحمد صدقي، المرجع السابق، ص.

[29] **Ageron CH R, Les Algeriens musulmans et la France 1871-1919,Paris Presse Universite de France, 1968,T1,p303**

[30] شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي،، دار الفكر، بيروت،**1973**م، ص**140**. وللإشارة فإن الزوايا التي تمّ تأسيسها خلال السنوات الأربع المتقدمة بليبيا في الجبل الأخضر وبرقة هي كالآتي: (البيضاء، شحات، بنغازي، درنه، ماره، أم الرزم، والعرقوب، توكرة، طلميثه، الطيلمون، الفائدية، المخيلي، القصور، المرج، ام ركبه في (فزان)، مرزق، زويلة، هون، سوكنه (في طرابلس) مزده، طبقة الرجبان، تونين، مصراطه، ازليتن، زله، وفي تونس زوايا الجريد.

[31] محمد عمارة، مسلمون ثوار، بيروت لبنان **1974**م، ص **363**.

[32] يعتبر الحاج المهدي باجودا الممثل الحقيقي للحركة السنوسية بمنطقة عين صالح،والذي كان له شرف الجهاد والاستشهاد في أولى معارك المقاومات الشعبية بمنطقة تيديكلت، والتي تعرف بمعركة

الفقيقرة في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي. ينظر: محمد الأمين بلغيث، تاريخ الجزائر المعاصرة، دار ابن كثير لبنان، ودار البلاغ للنشر والتوزيع الجزائر 1422هـ/2001م، ص 71.

[33] Deporter, la question du Touat au Sahara Algérien, Alger : Fontana, 1891,p40.

ينظر أيضا: عبد الرحمان تشايجي، مرجع سابق، ص60–61.

[34] تقع واحة غدامس في الجزء الشمالي الغربي من ولاية طرابلس الغرب، وتعتبر المركز التجاري الأكثر أهمية في المنطقة التي تربط بين شمال القارة الأفريقية وغربها منذ القدم، وينقل لنا الشيخ الطاهر الزاوي نقلاً عن ابن خلدون قوله : " غدامس أو يقال لها رادمس وكانت تسمى قديماً سيداموس، وهي مدينة بربرية قديمة لايعرف تاريخ تأسيسها بالتحديد.

ينظر: أحمد الطاهر الزاوي، معجم البلدان الليبية، ط1، مكتبة النور، طرابلس1968م، ص241.

[35] يوجد نص الرسالة كاملا في سجل خاص بدار المحفوظات–طرابلس– ليبيا، تحت رقم: 501/3/196.

[36] كان السي قدور بن حمزة يقوم بزيارة سنوية إلى مقاطعات أوقروت وتينركوك وتيميمون وجريفات، لأن سكان هذه المقاطعات أغلبهم من عرب الخنافسة وأولاد إيعيش، حيث يقدمون له خدمات في مجالات شتى ويدفعون له الغِفَارة وتُعرف محليا بأنه دين ثابت يدفع سنوياً إلى الشرفاء مكافأة لهم وإلى أولاد سيدي الشيخ(الزوى). أما الزيارة فهي ما يمنح بمحض الإرادة إكراما لولي من أولياء الله الصالحين لذا يبدو للباحث أنها عكس الغفارة التي تعتبر دينا ثابتا. ينظر:

Le commandant V.deporter, Extrême- sud de l'Algérie, Alger, p.Fontana, 1890,p108 .

[37] يذكر أحد الباحثين أن الشيخ بوعمامة قد اعتنق الطريقة الشيخية، والتي تعود في جذورها وتسلسل ولايتها إلى عهد الخليفة الراشدي أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وبهذا الطرح وضع نفسه بديلا للمريدين والمقدمين من كل الطرق الصوفية التي كانت منتشرة بالمنطقة، بمعنى أوثق إنه أول تجديد في لغة الحوار بينه وبين أتباعه. وهو ما اصطلح عليه فيما بعد بالطريقة العمامية أو الإيمانية. ينظر: بلغيث محمد الأمين، تاريخ الجزائر المعاصر، مرجع سابق،ص 67.

[38] Martin (A.G.P), Quatre siècle D'histoire Marocaine Au Sahara (1504-1902), Paris, 1993, pp200-204.

[39] ينظر : إدريس الحريري، " عمر المختار نشأته وجهاده من 1862م إلى 1931م "، ضمن كتاب دراسات في حركة الجهاد الليبي، أعمال الندوة العلمية التي عقدها مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي بمناسبة الذكرى الخمسين لاستشهاد عمر المختار، إشراف الدكتور عقيل محمد البربار، كلية الآداب والتربية– جامعة قاريونس د.ت،، ص65 وما يليها.

[40] محمد إمحمد الطوير: تاريخ حركات التحرر من الاستعمار في العالم خلال العصر الحديث، منشورات تانيت، أكدال – الرباط، 1997م، ص 82.